الفصل السادس

مصادر المنهجية وأدواتها

أهداف الفصل

1. بيان المقصود بالمصادر والأدوات في سياق الحديث عن المنهجية الإسلامية.
2. تحديد مصادر المعرفة الرئيسة في الرؤية الإسلامية وتسويغ حصرها في مصدري الوحي والكون.
3. تحديد أدوات المعرفة الرئيسة في الرؤية الإسلامية وتسويغ حصرها في أداتي العقل والحس.
4. توضيح مفهوم التكامل في كل من مصدري المعرفة وأداتيها في المنهجية الإسلامية.
5. استخلاص معادلة التكامل المعرفي.
6. التمييز بين أدوات التفكير والبحث.
7. بيان موقع الأدوات المستعملة في مناهج البحث السائدة في الممارسات الأكاديمية المعاصرة في المنهجية الإسلامية.
8. التمييز ضمن أدوات البحث بين أدوات جمع البيانات، وأدوات تحليلها، وأدوات تفسيرها.
9. توضيح موقع الفطرة في عملية التكامل المعرفي في الرؤية الإسلامية.

obeikan.com

obeikan.com

مقدمة

ترتبط المصادر والأدوات بالمنهج العملي وإجراءاته التنفيذية بصورة مباشرة، ومع ذلك فإننا سوف نتحدث عن مصادر المنهجية وأدواتها، لأنَّ المنهجية، بوصفها علم المناهج، تتضمن المناهج وتحتويها، وتحكم عمليات اختيارها وتوظيفها. ونأمل أن يخدم الربط بين المصادر والأدوات في سياق واحد الانتقال من التصور النظري لعناصر المنهجية إلى التنفيذ العملي للمناهج، فضلاً عن أن الحديث عن المصادر لا يصبح واضح الدلالة دون ذكر الأدوات التي تستعمل لاكتساب المعرفة من مصادرها، وهو ما يكشف أحياناً عن التداخل العميق بين المصادر والأدوات.

ويتضمن هذا الفصل بياناً لمفهومي المصدر والأداة والمفاهيم ذات العلاقة بكل منهما، والتمييز بين المصادر والأدوات في كل من مجالي التفكير والبحث، وتحديد المصادر الأولية والثانوية التي ينهل منها الإنسان المسلم معرفته وأحكامه وبياناته، والأدوات الأولية والمعينة التي يوظفها في استقاء البيانات والمعلومات من مصادرها، وصولاً إلى استخلاص ما أسميناه "معادلة التكامل المعرفي."

أولاً: مفهوم المصدر

صدْرُ الشيء أوَّلُه،[1] والصُّدور ضد الوُرُود، فالوارد هو الجائي، والصادر هو المنصرف ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ﴾ [القصص: 23]؛ أي يعودون بأغنامهم بعد ورودها الماء. وفي قوله سبحانه: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ۝٦﴾ [الزلزلة: 6] أي يخرجون من قبورهم، فيحتمل أن يَردوا الأرض ثم يَصْدُرون عن الأرض إلى عرصة القيامة، ويحتمل أن يردوا عرصة القيامة للمحاسبة، ثم يصدرون منها إلى موضوع الثواب والعقاب."[2] والصدر في جسم الإنسان

(1) الجرجاني، علي بن محمد. **كتاب التعريفات**، تحقيق: إبراهيم الأبياري، بيروت: دار الكتاب العربي، ص174.

(2) الرازي، فخر الدين. **التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب**، تحقيق: عماد البارودي، القاهرة: المكتبة التوفيقية، ج32، ص61.

يحوي القلب الذي هو موقع البصيرة، ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج: 46] ، والله سبحانه ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ [غافر: 19] وقارئ القرآن يدعو الله ﴿ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ ﴾ [طه: 25]. ويطلق الصدر في كلام العرب على الإحساس الباطني.[3]

والمصدر في اللغة هو الاسم الذي اشتق منه الفعل وصدر عنه.[4] ولذلك فإنَّ المصدر يعمل عمل الفعل؛ لأنَّه أصله، على مذهب البصريين، لأنَّهم يقولون: المصدر أصل الفعل، لكن الكوفيين يقولون إنَّ الأصل هو الفعل والمصدر فرع منه. والمصدر أنواع كثيرة منه المصدر الصريح، والمصدر المؤول، والمصدر الصناعي، والمصدر الميمي، والمصدر المشتق، والمصدر القياسي، ... إلى آخر ما هو معروف في كتب اللغة.[5]

والمصدر في علوم الجغرفيا والبيئة هو الجهة أو المكان أو الموقع الذي تستنبط منه الأشياء، فللمياه مثلاً مصادر سطحية وجوفية؛ وفي الاقتصاد صادرات وواردات، والبضاعة التي تباع في السوق لها مصدر أنتجها، أو صدَّرها؛ وفي مناهج البحوث والدراسات مصادر ومراجع في صورة كتب ودوريات وغيرها، يأخذ منها الباحث بياناته ومعلوماته، وتظهر عادة في هوامش البحث وقائمتة الببليوغرافية، وهكذا نجد المصدر ومشتقاته مصطلحاً يستعمل في كثير من المجالات المعرفية.

نستخدم مصطلح المصدر، عند الحديث في الفقة وأصوله (مصادر التشريع الإسلامي)، نعلم أن مصادر التشريع هي القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة، والاجتهاد بفرعيه القياس والإجماع. وتعدُّ هذه المصادر في لغة علم الأصول مصادر رئيسية، يتفق أكثر العلماء عليها، ويضاف إليها مصادر فرعية هي محل خلاف بين العلماء، ومنها الاستحسان، والاستصحاب، وسدّ الذرائع، وشرع

(3) ابن عاشور، محمد الطاهر. **تفسير التحرير والتنوير**، تونس: الدار التونسية للنشر، 1984م، ج3، ص139.

(4) الجرجاني. **كتاب التعريفات**، مرجع سابق، ص277.

(5) ابن هشام الأنصاري، محمد عبد الله جمال الدين. **أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك**، صيدا– بيروت: المكتبة العصرية، طبعة جديدة منقحة، 1996م، ج3، ص179 وما بعدها.

من قبلنا، وقول الصحابي، والعادة المحكمة... إلخ. ومصادر التشريع هذه هي مصادر استنباط الأحكام الشرعية. ومنهجية الوصول إلى هذه الأحكام من مصادرها هي علم يستند إليه العقل في إيمانه بمنزلة هذه المصادر، وضرورة الرجوع إليها والاستمداد منها. فهذه المصادر إذن هي مصادر المنهجية، التي يستنبط منها العقل الأحكام العملية التي يهتدي بها الإنسان في تفكيره وسلوكه.

عندما يجد الإنسان نفسه في حاجة إلى شيء من الأشياء فإنه يفكر في المصدر الذي يمكن له أن يحصل منه على ذلك الشيء، فإذا كان في منزله وأراد الماء فإنه قد يأخذه من صنبور الماء في مطبخ المنزل مثلاً، أو من قارورة الماء في المبرد، لكن ماء الصنبور في المطبخ يأتي من مصدر قبله، لعلّه خزان الماء في المدينة، وهذا يأتي من مصدر قبله أيضاً لعله يؤخذ من نهر، أو بحيرة، أو بئر ارتوازية، أو محطة لتحليه مياه البحر، وهكذا. فثمة مصدر أصلي، رئيس للماء ومصادر فرعية تابعة، وتكون هذه المصادر الفرعية بمستويات أو مراحل عديدة.

وبالمثل فإذا وجد الإنسان نفسه أمام مسألة، تتعلق بحق امرأة في التصرف بميراث زوجها الذي توفي عنها وله منها عدد من الأطفال القصّر، فإن مصدر الجواب عن هذه المسألة قد يجده في كتاب في أحكام الميراث، أو عند عالم يجيبه عن المسألة مباشرة، لكن هذا الذي أجابه؛ أي العالم أو مؤلف الكتاب عالج هذه المسألة الفقهية بالاعتماد على مصادر علمية سابقة، قد تكون كتب الفقه والأصول المعتمدة في مذهب معين. لكن كتب المذهب كانت أساساً تعتمد على مصدر أصلي هو نصوص معينة من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة. ومع أن السائل يكون قد حصل على الجواب من مصدر قريب ومباشرة، هو مؤلف الكتاب أو القاضي الشرعي أو المفتي، فإنَّ هؤلاء لم يحصل لهم العلم بالمسألة والجواب إلا من مصادر سابقة من كتب العلم والعلماء الذين اعتمدوا أساساً على المصدر الأصلي لجواب المسألة وهو الوحي.

وكذلك الأمر لو وَجَدَ وزير التربية والتعليم نفسه بحاجة إلى أساس معرفي لاتخاذ قرار يتعلق بمسألة تختص بنظام الإدارة التربوية بين المركزية واللامركزية، فإنَّ هذا الأساس المعرفي قد يجده في كتب الإدارة التربوية، التي توضح مزايا

كل من المركزية واللامركزية، والحالات التي يصلح فيها هذا النظام أو ذلك، ثم يجتهد في اختيار النظام الأكثر ملاءمة لحالته، في ضوء الخبرات التربوية في البلدان المختلفة التي سجلتها تلك الكتب، التي هي في هذه الحالة مراجع ومصادر لاتخاذ القرار.

وقد يلجأ الوزير إلى عقد جلسات حوار ومناقشات بين عدد من فئات المعنيين بهذه المسألة، من مديري الإدارات العليا والوسطى، ومديري المدارس والمعلمين، وأولياء أمور الطلبة، وغيرهم. وقد يلجأ الوزير إلى تكليف باحث أو فريق من الباحثين لاستخدام المنهجية المناسبة والقواعد الملائمة في استطلاع آراء المعنيين بهذه المسألة عن طريق أداة استطلاع رأي أو استبيان أو مقابلات... إلخ. وتحليل بيانات البحث والوصول إلى نتائج محددة تكون أساساً لاتخاذ القرار المناسب في اعتماد النظام التربوي. وعليه يكون مصدر القرار هو المعلومات التي قدمها الجمهور المعني بهذا القرار (أو المجتمع المستهدف به)، تطبيقاً لمبدأ الشورى والمشاركة في اتخاذ القرار، وتم التوصل إلى هذه المعلومات عن طريق بحث علمي، يوظف المناهج والأدوات الملائمة، لجمع البيانات وتحليلها واستخلاص نتائجها.

نلاحظ هنا أننا لسنا بصدد حكم شرعي، يقرر ما يجوز أو لا يجوز، وإنما نحن أمام مسألة من المباحات، التي يتم فيها اتخاذ القرار في ضوء تقدير ما يحقق المصالح، ويوظّف ما قادت إليه الخبرة السابقة في الموضوع، ويأخذ بما يراه المعنيون -أو غالبيتهم- مناسباً لهم.

وفي جميع الحالات نلاحظ أننا لا نصل إلى مصدر العلم الذي يلزم اكتسابه إلا عن طريق أدوات مناسبة وأعراف مستقرة. ونلاحظ أيضاً أن كثيراً من التفاصيل التي تؤخذ بعين النظر تتعلق بطبيعة المجتمع الدينية وانتمائه الفكري وأولوياته الثقافية، ورؤيته الكونية. ولكن الباحث مع كل ذلك يستفيد من التجارب السابقة للمجتمع نفسه ومن تجارب المجتمعات الأخرى، ويوجه نتائج التفكير والبحث المنهجي لتحقيق مصالح الناس وتلبية حاجاتهم.

ثانياً: مصادر المنهجية

سوف نلاحظ تداخلاً كبيراً بين مصادر الحصول على العلم -أيّ علم- ومصادر استنباط الأحكام الشرعية من جهة، ومصادر المنهجية في التفكير والبحث، من جهة أخرى. ولا عجب في ذلك، فثمّة علم بالأحكام الشرعية التي نحصل عليها من مصادر محددة (علم الفقه مثلاً)، وثمّة منهج لاستنباط هذا العلم والحصول عليه من تلك المصادر (علم أصول الفقه مثلاً).

وفي القرآن علم عن الله والملائكة والأنبياء والتاريخ البشري، وعن خَلْق الأشياء والظواهر والأحداث، وفيه علم عن عالم الغيب وعلم عن عالم الشهادة، فإذا تحدثنا عن مصادر هذه العلوم فإنَّ القرآن الكريم سوف يكون مصدراً.

والقرآن الكريم مصدر لاستنباط الأحكام الشرعية؛ إذ نأخذ من القرآن أحكاماً تتعلق بالحلال والحرام وأحكاماً تتعلق بالمعاملات المالية، وأحكاماً تتعلق بقواعد السلوك الاجتماعي وأحكاماً في المواريث... وهكذا فإن القرآن الكريم سيكون مصدراً.

1. الوحي مصدر للمعرفة

تميّز رؤية العالم في المنظور الإسلامي بطريقة واضحة تماماً بين مصدرين لابتغاء الرشد في أي عمل يقوم به الإنسان، وهذان المصدران هما: الوحي والوجود، فالوحي هو ما أوحى الله سبحانه به إلى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، وبلّغه للناس، وبيّنه لهم بالقول والفعل. فمنه الوحي الجليّ وهو القرآن الكريم، ومنه الوحي الخفيّ وهو السنة النبوية الشريفة.

ومع ذلك فإن مصطلح الوحي في القرآن الكريم يتضمن ما يوحي به الله إلى من شاء من الناس، بكيفيات نعرف منها ونجهل، إلهاماً أو خاطراً في النفس، أو رؤية في المنام، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾ [القصص: 7]

ويتضمن مصطلح الوحي في القرآن الكريم ما يوحي به الله إلى من شاء من خلقه، بكيفيات نجهلها، مثل قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [النحل: 68].

وقد تمّ تدوين الوحي الإلهي بصورة بلغت الغاية القصوى في الدقة والضبط والأمانة، في إثبات سوره وآياته، وكلماته وحروفه، فهو: ﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ ﴾ [هود: 1] ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَاۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [الأنعام: 92] ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ﴾ [البقرة: 2] ﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ﴾ [إبراهيم: 1] ﴿ طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ ﴾ [الشعراء: 1 - 2] ﴿ الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ ﴾ [يونس: 1] ﴿ الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴾ [الأعراف: 1 - 2]

فالقرآن الكريم هو الوحي الإلهي الذي يمثل المصدر المنشئ للتصورات الكلية، التي تحكم رؤية المسلم للخالق والمخلوقات وللحياة الدنيا وما بعدها من حياة أخرى، ورؤيته لطبيعة الإنسان وغاية وجوده ولعالم الغيب وعالم الشهادة. والقرآن الكريم هو المصدر المنشئ للأحكام الشرعية في العبادات والمعاملات والأخلاق، ولقواعد التفكير الإنساني التي تنظم طرق فهم الإنسان للأشياء والأفكار والأحداث وتحكم سلوكه إزاءها.

ويدخل في الوحي أيضاً سنة النبي صلى الله عليه وسلم، فيما يكون بياناً للقرآن، وتنزيلاً لأحكامه وتفصيلاً لمجمله.

نلاحظ أن الوحي يكون مصدراً مباشراً للمعرفة في مبادئ الاعتقاد، والأحكام العملية وقواعد السلوك الفردي، والإخبار عن الأمم الماضية، وأساليب التربية والتعليم، وذلك في ما تتضمنه الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ذات الدلالات الواضحة في تحديد ما يقوم به الإنسان، من أعمال محمودة؛ أو ما ينعقد عليه

عزم الإنسان حول ما يجول في نفسه من خواطر؛ أو مما هو في مستوى الوجوب؛ أو الندب. وقد تكون دلالات هذه النصوص متعلقة بما يلزم أن يمتنع الإنسان عن القيام به من أفعال مذمومة، سواءً كانت في مستوى التحريم، أو الكراهية.

لكنَّ بعض النصوص لا تكون مصادر مباشرة لاستنباط العلم وتحديد قواعد السلوك، وإنَّما تمثل هذه النصوص مصدراً للهداية العامة، والمبادئ الكلية، والرؤية الكونية، والمرجعية العليا، لأنماط السلوك البشري في سائر المجالات. وتكون دعوة إلى الكسب البشري، في ضوء السعي في الأرض واتخاذ الأسباب، لاكتشاف السنن، وتوظيفها في حمل الأمانة وتحقيق العمران في مجالات متعددة، مثل:

- البحث التاريخي: سنن تاريخية للاعتبار.
- والبحث الاجتماعي: سنن اجتماعية لفهم الفطرة والطبائع والوقائع.
- والبحث الطبيعي المادي: سنن وقوانين الفيزياء والكيمياء... إلخ.
- والبحث التربوي... إلخ.

مثل هذه النصوص تعين الإنسان على التفكر والتدبر في شؤون حياته، وبيئة عَيْشه وطبيعة علاقاته مع الآخرين، فيحدد في ضوئها البدائل المختلفة ويوازن بين هذه البدائل، ويختار منها الأكثر انسجاماً مع غايات الدين ومقاصده، والأقرب إلى اليسر مع الصواب، والأكفأ في تحقيق الغاية مع ميسور الجهد، والأبعد عن المشقة والعسر.

هذا عن القرآن الكريم، وكذلك فإن السنة النبوية الشريفة تلحق بالقرآن الكريم، بوصفها من الوحي الخفيّ، فالرسل والأنبياء معصومون فيما يبلغون عن ربهم مما يهديهم إليه من أحكام وتوجيهات تتصل باستقامة حياة الناس على المنهج، الذي ينتهي بهم إلى خيرهم في الدنيا والآخرة. وتتنوع موضوعات السنة النبوية لتشمل مجالات الحياة الإنسانية المختلفة، وتخدم أغراضاً متعددة؛ فمنها ما يكون بياناً للقرآن، وتفصيلاً لمجمله، وتوجيهاً تطبيقياً للاهتداء به، وقدوة في

السلوك العملي في مجال محدد. ولذلك طور العلماء مناهج للتعامل مع السنة النبوية الشريفة، وأنشأوا علوماً لخدمة السنة النبوية: السنة رواية، والسنة دراية، وميَّزوا مقامات متعددة للهدي النبوي: تشريعاً، وتوجيهاً، وفضائل، وعادات، وغيرها.

2. العالَم مصدر للمعرفة

أما المصدر الثاني للمعرفة الإنسانية في المنهجية وغيرها من مجالات المعرفة والعلوم فهو العالم، أو الكون ونستطيع أن نميّز فيه ثلاثة مستويات هي:

- العالم الطبيعي المادي ويتعلق بالموجودات المادية من مستوياتها المجهرية الدقيقة microscopic إلى المجرات الهائلة في حجمها البعيدة في مسافاتها فلا ترى إلا بالمقراب telescopic وما بين ذلك من الأشياء والأحداث والظواهر.
- العالم الاجتماعي للبشر في حياتهم شعوباً وقبائل ومجتمعات ودولاً وعلاقات أسرية واجتماعية ودولية، وأنظمة وقوانين تحدد الحقوق والواجبات.
- العالم النفسي الذي يتعلق بالفرد الإنساني عقلاً وروحاً، وحياة وموتاً، وصحة ومرضاً، وعلماً وجهلاً، وفكراً ووجداناً، ومشاعر وانفعالات، كيف يفكر، وكيف تنمو قدراته وكيف يصل إلى أرذل العمر، لماذا وكيف يحب ويكره، فمع أنَّ الإنسان كائن صغير في الكون الطبيعي فإنه في الوقت نفسه ينطوي على عالم في غاية التركيب والتعقيد والسعة، كما يقول علي ابن أبي طالب كرم الله وجهه: [6]

دواؤك فيك وما تشعر ... وداؤك منك وما تبصر
وتزعم أنك جِرْمٌ صغير ... وفيك انطوى العالم الأكبر

وتقع المعلومات التي يكتسبها الإنسان عن أشياء العالم وأحداثه أو ظواهره في مستويات مختلفة، فمنها ما يكون وصفاً بسيطاً كميّاً أو كيفياً، أو وصفاً مركباً

(6) علي بن أبي طالب. **ديوان أمير المؤمنين وسيد البلغاء والمتكلمين علي بن أبي طالب**، جمع وترتيب: عبد العزيز الكرم، القاهرة: مكتبة الكرم، 1963م، ص57.

يصف الشيء أو الظاهرة أو العلاقة بقانون أو معادلة، ومنها ما يكون تفسيراً لسبب وجود الأشياء والظواهر، ومنها ما يكون توقعاً وتنبؤاً بحكم اضطراد الظواهر وانتظام حدوثها... وهكذا.

3. تكامل مصدري الوحي والوجود

ليس من السهل أن نتخيل حدوداً فاصلة بين مصدري الوحي والوجود، فالقرآن الكريم يجعل نصوص الآيات المتلُوَّة المسطورة في القرآن مصدراً، ويجعل آيات الله المخلوقة المنظورة في العالَم مصدراً، والله سبحانه هو منزِّل الكتاب وهو سبحانه خالق العالَم، فإليه يرجع الأمر كلّه؛ أي إنّ الله سبحانه هو المرجع فيما يرسمه للناس من أسباب الهداية وسبل الرشاد، في أموره كلها. فالإنسان يقرأ؛ يقرأ ما هو مخلوق ومعروض ومنظور في العالَم، من عالَم طبيعي مادي، وعالَم اجتماعي، وعالَم نفسي؛ يشاهده ويتأمله ويتدبره، يقيسه ويحسبه، يختبره ويسخره.

والإنسان هو أحد هذه المخلوقات التي يخلقها الله خلقاً من بعد خلق، في مراحل متتابعة، ليأتي في النهاية في أحسن تقويم، حتى لا يملك الإنسان وهو يتأمل إلا أن يقول: فتبارك الله أحسن الخالقين.(7) ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢﴾ [العلق: 1 – 2] فهذه قراءة في العالم المخلوق يهتدي بها الإنسان إلى الخالق الواحد، وهو يقرأ آيات الله في أغوار الأنفس وآفاق الكون.

قال الإمام الرازي المفسر رحمه الله تعالى: "روي أن عمر بن الخيام كان يقرأ كتاب المجسطي (لمؤلفه بطليموس في القرن الرابع قبل الميلاد) على

---

(7) قَالَ تَعَالَى: ﴿خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ ۝١٣ ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ۝١٤﴾ [المؤمنون: 12 – 14] عن أنس قال: قال عم، يعني عمر بن الخطاب رضي الله عنه: وافقت ربي ووافقني في أربع: نزلت هذه الآية "ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين" الآية، قلت أنا فتبارك الله أحسن الخالقين، فنزلت ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾

انظر:

- ابن كثير، الحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل. **تفسير القرآن العظيم**، تقديم: عبد القادر أرناؤوط، دمشق– الرياض: دار الفيحاء، مكتبة دار السلام، طبعة جديدة ومنقحة، (د. ت.)، ج3، ص325.

أستاذه عمر الأبهري، فقال بعض الفقهاء يوماً: ما الذي تقرؤه، فقال (عمر): أفسر آية من القرآن وهي قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ ﴾ [ق: 6]؛ فأنا أفسر كيفية بنيانها، ولقد صدق الأبهري فيما قال فإن كل من كان أكثر توغلاً في بحار مخلوقات الله تعالى كان أكثر علماً بجلال الله تعالى وعظمته."[8]

وثمة قراءة أخرى: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾ [العلق: 1-5] فالإنسان يقرأ المسطور في الكتاب وهو ما يكتب بالقلم، فقد علّم الله الإنسان ما لـمْ يكن يعلمه من الكتابة بالقلم، ومن تدوين ألوان العلم المكتوب بالقلم، ومنه هذا الكتاب المكنون في اللوح المحفوظ، المنزل على رسوله ﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الحاقة: 43]، ليتلوه على الناس ﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ﴾ [الكهف: 27]، وليقرأه عليهم ﴿ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ ﴾ [الإسراء: 106]، وليكون مادة للتلاوة والتزكية والتعليم ﴿ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ [البقرة: 129].

فالقراءة قراءتان، وكل قراءة منهما تعين في القراءة الأخرى، فهما قراءتان متكاملتان، ولا بد للإنسان القارئ أن يجمع بين القراءتين، ليتمكن من تحصيل الهداية والرشد: وتتكامل القراءتان حين تتم قراءة الوحي لفهم العالم والتعامل معه، وتتم قراءة العالم لفهم الوحي والتعامل معه.

لننظر في بعض الأمثلة على التكامل بين قراءة العالم وقراءة الوحي لنصل إلى معرفة أقرب إلى الصواب. قوله سبحانه: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [الرعد: 3] قال الرازي في تفسيره: "في هذه الآية رد على من زعم أن الأرض كرة..." ثم نقل ما زعمه ابن الراوندي وغيره بخصوص تركيب الأرض وحركتها، وعقب على ذلك بقوله: "والذي عليه المسلمون وأهل الكتاب القول بوقوف

(8) الرازي، فخر الدين. **تفسير مفاتيح الغيب**، مرجع سابق، ج2، ص481.

الأرض وسكونها ومدّها، وأن حركتها إنما تكون في العادة بزلزلة تصيبها."[9]

لقد اعتمد الرازي في فهمه للآية على ما كان سائداً من معرفة عن شكل الأرض وتكوينها وحركتها، وسفّه رأي الراوندي وغيره لقولهم بكروية الأرض وحركتها. واستأنس في فهمه هذا بأنه الفهم السائد عند المسلمين وأهل الكتاب. ونحن نعلم الآن علماً أقرب إلى اليقين أنَّ شكل الأرض كروي، وأنَّها تدور حول محورها الرأسي من الغرب إلى الشرق مرة كل أربع وعشرين ساعة، وأنَّها تدور حول الشمس مرة كل سنة شمسية، وكثير من معرفتنا هذه أصبحت معرفة تجريبية لا يخالجها أي شك، ويستوي في هذه المعرفة المسلمون وأهل الكتاب وغيرهم من سكان العالم اليوم. أما النص القرآني ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ ﴾ [الرعد: 3] الذي استشهد به الرازي للرد على من يقول بكروية الأرض، فإننا نفهمه اليوم على غير فهم الرازي، فالأرض تبدو ممدودة مبسوطة للإنسان حين ينظر في الجزء المحيط بموقعه منها، وهو ثابت عليها فلا يشعر بحركتها لأنه جزء منها، وهي من الكبر في الحجم بالنسبة للإنسان فلا يرى بعينيه في نهاية الأفق ما بعد هذا الأفق. وكل ذلك من متطلبات تيسير سبل العيش على الأرض والاستقرار فيها.

ولذلك فإننا نعذر الرازي وغيره من المفسرين الذين لم يتيسر لهم معرفة

أمثلة أخرى:

يمكن للقارئ عند هذا الحد أن يذكر أمثلة أخرى مما ورد في كتب التراث من تفسير لآية قرآنية كريمة، أو حديث نبوي شريف، وأصبحنا اليوم نفهم الآية أو الحديث على غير فهم الأقدمين من العلماء، بسبب الحاجة إلى ترجيع البصر، وتكرار التأمل والنظر في المسألة في ضوء ما استجد من العلوم والمكتشفات. فكما كانت علوم القدماء في موضوع النصوص الدينية أداة لفهم هذه النصوص، فكذلك علومنا اليوم أداة لفهمنا لها.

(9) القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري. **الجامع لأحكام القرآن**، بيروت: دار الكتب العلمية، 1988م، مج5، ج9، ص184.

كروية الأرض وحركتها، في عصورهم، ونعتذر لهم بعدم قبول ردِّهم على من قال بكروية الأرض وحركتها، ومن ثم نخالفهم في فهمهم وتفسيرهم لبعض الآيات القرآنية من مثل قوله سبحانه: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾﴾ [النازعات: 30]، وقوله سبحانه: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ [الزمر: 5]، وقوله: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ﴾ [الأعراف: 54] في ضوء معرفتنا المعاصرة، التي هي أقرب إلى واقع الأمر مما فهم الرازي ومن اعتمد عليهم الرازي في فهمه؛ أي إنَّ معنى الآية القرآنية وما يفهم منها، وما توحي به من علم ومعرفة لا ينحصر في المعنى اللغوي للألفاظ الذي كان سائداً في عصر معين، ولا يتوقف عند حدود المعرفة التي كانت متاحة للمفسر في عصره، وإنما يتسع هذا المعنى ليدخل فيه فهم جديد يؤتيه الله من شاء من عباده، ويكون أكثر انسجاماً مع معرفتنا التجريبية المعاصرة عن الطبائع والوقائع. وكون ابن الراوندي الذي يعرف بالفسق والإلحاد أنه قال بأمر من الأمور لا يعني بالضرورة خطأ ما يقوله لأنه فاسق أو فاجر عاص. فكثير من علماء عصرنا في البلدان المختلفة يعدون كفاراً وملحدين، لكنهم علماء موثقون في علمهم ومجالات تخصصهم؛ إذ لا يمنعهم فسقهم وكفرهم من أن يصلوا إلى الحقائق والمفاهيم والمبادئ العلمية فيما يتعلق بالوجود الطبيعي أو الاجتماعي أو النفسي.

ومثال آخر على ضرورة الجمع بين القراءتين يتعلق بحديث كراهية استعمال الماء المشمس في الوضوء، وهو حديث مروي عن أم المؤمنين عائشه رضي الله عنها، بروايات متعددة تتفاوت في الصحة والضعف، وقد جاء مضمون الحديث في أثر عن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه.[10] ووجه الاستشهاد بالحديث هنا هو المتن دون السند؛ إذ يجرى التساؤل عن سبب الكراهية: "فإنَّما يكره المشمَّس بشرطَيْن: أحدهما أن يكون التشميس في الأواني المنطبعة كالنحاس والحديد والرصاص، لأنَّ الشمس إذا أثرت فيها خرج منها زهومة تعلو على وجه الماء ومنها يتولد البرص، ولا يتأتي ذلك في إناء الذهب والفضة... وكذلك لا

(10) الحديث رواه الدارقطني بإسناد صحيح، ورواه الإمام الشافعي عن عمر ابن الخطاب. انظر:
- الحصيني الدمشقي، تقي الدين أبو بكر بن محمد الحسيني. **كفاية الأخيار في حل غاية الاختصار**، تحقيق: علي عبد الحميد بلطجي، ومحمد وهبي سليمان، دمشق: دار الخير، 1994م، ج1، ص12.

يكره في أواني الخزف وغيرها لفقد العلة، الشرط الثاني أن يقع التشميس في البلاد الشديدة الحرارة دون الباردة والمعتدلة، فإنَّ تأثير الشمس فيهما ضعيف" والأمر بعدُ يراجع فيه الأطباء... والكراهة إما شرعية فعلى هذا يثاب على ترك استعماله (أو) إرشادية لا يثاب فيها لأنَّها من وجهة الطب."[11]

ومثال آخر يتعلق بحكم التصوير؛ إذ وردت أحاديث صحيحة في البخاري ومسلم تُحرِّم التصاوير والتماثيل، بوصفها مضاهاة للخلق، ولاشتباه وضعها في البيوت مثل وضع الأصنام أيام الجاهلية. ولذلك كان العلماء إلى عهود قريبة يحرِّمونها جملة، أو يحرمون ما ينحت منها مجسماً كالتماثيل، أو يحرمون منها ما يرسم باليد. ولكن شيوع استعمال الصور في الوثائق الثبوتية، واستعمال الآلات الفوتوغرافية، التي كانت تجعل التصوير حبساً للظل، وكثرة التعامل مع الصور والحاجة إليها لأغراض متعددة، أفقدت الصور معنى التقديس والعبادة، من جهة، كما أبعدت عن خاطر المصور شبهة مضاهاة الخلق من جهة أخرى، فأخذ العلماء يفتون بجواز التصوير للحاجة، ثم بجواز التصوير مطلقاً ما لم يرافق التصوير أمور أخرى لا تجيزه بسبب تلك الأمور، وليس للتصوير في حد ذاته، مثل تصوير الإجسام العارية، أو الخلوة من أجل التصوير.

ضرورة الاستفادة من المراجع المتخصصة في مناهج البحث وأدواته وطرقه.

ثالثاً: الأدوات المنهجية

ربما تختلف طريقة عرضنا للأدوات المنهجية عن الطريقة المألوفة في أدبيات البحث، التي تقف غالباً في تناولها للأدوات عند الوسائل الفنية والطرق الإجرائية التي تستخدم في جمع البيانات، مثل الاختبارات والاستبيانات والمقابلات، وأمثالها، وتتحدث عن تفاصيل إعداد هذه الأدوات والإجراءات التي يلجأ إليها الباحث لضمان صدق الأدوات في قياس ما أعدت لقياسه، وثبات قياسها لو تم بوساطة أكثر من باحث، أو لو استعملت أكثر من مرة، إضافة إلى التوجيهات

(11) المرجع السابق، ج1، ص12.

اللازمة لإدارة عملية تطبيق هذه الأدوات، وغير ذلك من الإجراءات. ولا شك في أنَّ هذه المعرفة مفيدة جداً، ولو تم تعلمها والتدريب عليها جيداً فقد يصلح ذلك شيئاً من الخلل الذي تعاني منه الممارسات البحثية في جامعاتنا، ومؤسساتنا البحثية على نطاق واسع، ولا سيما الخلل في إعداد هذه الأدوات وطرق استعمالها.

ونحن في سياق عرضنا للمنهجية الإسلامية وعناصرها، سوف نؤكّد على إمكانية الاستفادة من الأدبيات المشار إليها، وإتقان استعمالها حيثما يلزم. ولكننا بالإضافة إلى ذلك نود توسيع دائرة الأدوات المنهاجية لتقوم هذه الأدوات بتأدية دورها في الوصل بين أسئلة البحث التي نبدأ منها، والإجراءات البحثية التي نقوم بها، ونتائج البحث التي نتوصل إليها. وسوف تؤدي هذه الأدوات دورها في الربط المحكم بين الباحث الذي قرر اختيار الأداة وموضوع البحث الذي سوف يتشكل في ضوء استعمال هذه الأداة، والطريقة التي تستعمل بها. ولا ننسى أننا نلجأ إلى استعمال الأدوات للكشف عن معلومات غير معروفة لنا، ولا تبدو لنا بصورة مباشرة. ولذلك فإن "القيمة الذاتية" للأداة تكمن في قدرتها على "فك رموز الظواهر... فتستطيع الوصول إلى المكنون والكامن في الظاهرة من أسرار..." ولذلك فإن هذه المهمة لن تتحقق إلا إذا تم اختيار الأداة المناسبة للغرض المنشود. أما "القيمة المضافة" للأداة فهي تتعلق بقدرة الباحث وكفاءته في استعمال الأداة وقدرته على "التعامل بهذه الأداة التى تفضي له بكامل إمكاناتها ومختلف مكنوناتها واستثمار كل قدراتها وفاعليتها."[12]

وسوف يلاحظ القارئ أن عرضنا لموضوع الأدوات المنهاجية سوف يمتد أفقه ليشمل المفاهيم الكبيرة، والمداخل العامة، و"المذاهب الفكرية= الإيديولوجيات، والنظريات الكلية، والنماذج التفسيرية، التي يوظفها الباحث في صورة أدوات منهاجية، ليس في جمعه المادةَ البحثية وبياناتها الأساسية فحسب، وإنما في تنظيم هذه البيانات وتحليلها وتفسيرها كذلك، بل أكثر من ذلك في استخدام المعرفة أو العلم "أداة معرفية" أو "أداة أيديولوجية".[13]

(12) عبد الفتاح، سيف الدين. "المنهجية وأدواتها من منظور إسلامي" في: باشا، أحمد فؤاد، وآخرون. **المنهجية الإسلامية**، القاهرة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ودار السلام 2010م، ج2، ص657.

(13) امزيان، محمد محمد. **منهج البحث الاجتماعي بين الوضعية والمعيارية**، هيرندن، فيرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط1، 1991م، ص129.

ومن هذا القبيل نظم الدكتور سيف الدين عبد الفتاح طريقة عرضه للأدوات المنهاجية ضمن أربعة مداخل: الأول هو المدخل المقاصدي الذي يعتمد نظرية مقاصد الشريعة الإسلامية كما وضعها الإمام أبو إسحق الشاطبي، باعتبار أن هذا المدخل يحمل عناصر في النظر إلى الواقع: وصفاً وتحليلاً وتفسيراً وتقويماً يمكن الاستناد إليها في تحليل الظواهر السياسية والدولية. والمدخل الثاني هو المدخل السفني الذي يوظف حديث الرسول صلّى الله عليه وسلم الذي يضرب مثلاً على طبيعة المسؤولية العامة والتماسك الاجتماعي بمجموعة في سفينة لو أحدث واحد منهم خللاً فيها لهلك الجميع.[14] والمدخل الثالث هو المدخل المفاهيمي الذي يوظف المفاهيم بوصفها منظومات تحليل للظواهر الاجتماعية المتشابكة. أما المدخل الرابع فهو فكرة النموذج المعرفي لـ"توماس كون" بوصفها أداة بنائية وتحليلية للنماذج الفكرية التي تسود المجتمع العلمي وتمثل له تقليداً بحثياً وطريقة في التفكير.[15]

أداتا العقل والحسّ

مثلما أن الوحي والوجود مصدران للمنهجية، لا ثالث لهما، لأن كل المصادر الثانوية ترتد إليهما، كذلك فإن العقل والحسّ أداتان للمنهجية، لا ثالث لهما، لأن جميع الأدوات الأخرى ترتد إليهما.

والأداة وسيلة تؤدي إلى القصد والغاية، فإذا كانت البئر مصدراً للماء، فالدلو والمضخة أداتان للحصول عليه، والعين أداة الإبصار، والأذن أداة السمع، والقلب

(14) نص الحديث: حَدَّثَنَا أَبُو نُعَيْمٍ حَدَّثَنَا زَكَرِيَّاءُ قَالَ سَمِعْتُ عَامِرًا يَقُولُ سَمِعْتُ النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنْ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ فَقَالُوا لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا: انظر:

- البخاري، محمد بن إسماعيل، **صحيح البخاري**، تحقيق: أبو صهيب الكرمي، الرياض: بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع، كتاب: الشركة، باب: هل يقرع في القسمة والاستهام فيه، 1419هـ/ 1998م، حديث رقم 2493. ص471 – 472.

(15) عبد الفتاح، سيف الدين. "المنهجية وأدواتها من منظور إسلامي" في: باشا، أحمد فؤاد، وآخرون. **المنهجية الإسلامية**، مرجع سابق، ج2، ص657–660.

أداة التعقل والتفكر والفهم ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ [الأعراف: 179] وكذلك فالعصا أداة: ﴿ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ ﴾ [طه: 18] والعقل أداة العالمين في فهم الأمثال التي يضربها الله عز وجل: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [العنكبوت: 43].

والعقل مصدر لغوي لعملية التعقل، يقول سبحانه: ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [البقرة: 44] ويقول: ﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [البقرة: 37] ويقول: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾ [البقرة: 164].

وهكذا فإنَّ وظيفة العقل هي: التفكر والتدبر والتعلم. يقول الله عز وجل: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [العنكبوت: 43].

ويأتي العقل في المصطلح القرآني بمعنى الرشد؛ يقول الله سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ [الأنبياء: 51]، ويقول: ﴿ وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾ ﴾ [النساء: 6] والرشد: إصابة وجه الأمر، والاهتداء إلى الطريق الموصل، ومن اهتدى إلى الطريق لَزِمَهُ سلوكُه. ويقابلُ الرشدَ: الغيُّ والضلال، فالضلال هو العدول عن الطريق مع ذكر الغاية والمقصد، والغي هو العدول مع نسيان الغاية، فلا يدري الإنسان الغَوِيُّ ماذا يريد وماذا يقصد.

والحسُّ هو استعمال أدوات الإحساس الخمس المعروفة: السمع والبصر والشم واللمس والذوق، (هل من حاسّة سادسة؟!). والإحساس تسجيل للأثر الفيزيائي للمحسوس على أداة الحس. وتتحقق دلالة الإحساس المادي حين

يحصل الإدراك العقلي، الذي يفسر الإحساس ويعطيه الصفات والخصائص الملازمة له. فالإحساس بالعين: رؤيةٌ وتمييز للحجم واللون والشكل، والإحساس بالأذن: سماعٌ وتمييز للصوت، شدةً أو ضعفاً، نغماً جميلاً أو جلبة نشازاً، وصوت إنسان أو صوت طائر، وللأصوات أسماء... وهكذا: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾ ﴾ [مريم: 98]

وتستعين أدوات الحس البشرية العارية بأدوات توسِّع نطاق عمل الحس المجرد، فالعين المجردة ترى في حدود معينة، فلا ترى الأجسام الصغيرة جداً، لكنَّ أدوات التكبير (مثل المجهر أو الميكروسكوب) تمكن العين من رؤيتها، والمجاهر المتطورة تمكن العين من رؤية التفاصيل الدقيقة جداً. والعين المجردة لا ترى الأجسام البعيدة جداً، لكن أدوات التقريب (التلسكوب مثلاً) تمكن عين الإنسان من رؤية الأجسام البعيدة بوضوح أكبر. والأمر في مسألة أدوات الرؤية لا يقف عند رؤية الأشياء بمعنى: ملاحظة وجودها وتمييزها عن غيرها بأسمائها ووظائفها، وإنما يمكن للعين أن تميز الكثير من الخصائص مثل الأبعاد والأحجام طولاً وعرضاً وعمقاً، والألوان الشديدة والضعيفة، الأصلية والمشتقة، المنتظمة والمبعثرة، والأشكال المنتظمة والمسطحة (مثلثات ودوائر...) والمجسمة (كرات، واسطوانات...) وغير المنتظمة، وهكذا.

وقد أصبحت أدوات الرؤية الحديثة قادرة على تمييز الأشياء وتحديد صفاتها وخصائصها الكثيرة بوساطة ما يسمى "العيون السحرية" التي تلتقط إشارات محددة تعبر عن الأشياء وتستدعي الخصائص الكثيرة جداً لهذه الأشياء لأنها تكون مبرمجة في تلك العيون. ألا ترى تلك الخطوط المرسومة على أصناف البضائع في الأسواق التجارية، فإذا أراد البائع أن يحسب سعرها، عَرَضَها على تلك العين السحرية، فتقوم بكتابة اسمها وتحديد سعرها وإضافته إلى أسعار الأشياء الآخرى، ثم يعطيك البائع قائمة بالمشتريات فيها أثمان كل منها والمبلغ المطلوب منك دفعه من مجموع الأشياء، ويتم ذلك في لحظات قليلة.

ثم ألا ترى بعض أجهزة الكمبيوتر تتعرف على صاحبها من تمييز بصمة إبهامه حين تعرض هذه البصمة على عين سحرية في لوحة الجهاز، أو من

تمييز قزحية عينيه حين تلتقطها عين سحرية على شاشة الجهاز، فيسمح الجهاز لصاحبه بالدخول إليه واستعماله؟ ألا ترى أن الموظف يستطيع أن يفتح أبواب بعض المكاتب في المؤسسة بإدخال بطاقة خاصة في عين سحرية، تلتقط البيانات المخزنة في البطاقة فتتعرف على صاحبها، وتسمح له بالدخول؟ وقد أصبحت هذه البطاقات مفاتيح للبيوت وغرف الفنادق.

أَلَمْ ترَ أنَّ أجهزة التصوير "كاميرات" كانت ترى ملامح الإنسان فتسجل له صورة تعبر عن شخصيته وهويته؟ ألم تر كيف تطورت هذه الكاميرات من استخدام الصفائح الحساسة، التي تحتاج إلى عمليات تظهير للمسودة، ثم طبع للصورة بالأبيض والأسود، ثم تطورت الأفلام الحساسة إلى التقاط الصور الملوَّنة، ثم إلى الكاميرات الرقمية التي لا تستخدم الأفلام الحساسة، وإنما تسجل الصور فوراً وتحتفظ بها! ثم ألم تر كيف جاءت آلات التصوير المتحركة السينمائية والفيديو، وكيف أصبح من السهل نقل هذه الصور الرقمية المسجلة إلى شرائح في غاية الصغر، أو أقراص مرنة، أو مدمجة يمكن أن تحتفظ الشريحة الواحدة أو القرص الواحد بكميات هائلة من وقائع الصورة والصوت!

كل هذه أمثلة على أدوات الرؤية التي تتجاوز رؤية العين المجردة، وتوسِّع مدى الرؤية ومجالات توظيفها في التفكير والبحث وممارسة الحياة في مختلف مجالاتها.

ومثل ذلك يقال بخصوص أداة السمع، وهي الأذن الإنسانية وسائر الأدوات التي تعين الأذن على سماع دقائق الأصوات وتفاصيلها، وكذلك الأمر في أدوات الحس الأخرى. لكنّ الإحساس لا يقف في معناه على البعد المادي فحسب، فقد يكون الإحساس علماً ومعرفة،[16] أو استشعاراً،[17] قلبياً عقلياً نفسياً، مثل دلالة قوله سبحانه: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ﴾ [آل عمران: 52].

(16) القرطبي، محمد بن أحمد. **الجامع لأحكام القرآن**، بيروت: مؤسسة مناهل العرفان، د.ت، ج2، ص97. "وأحسّ بمعنى علم ووجد؛ قاله الزجاج، وقال أبو عبيدة: معنى "أحسّ" عرف، وأصل ذلك وجود الشيء بالحاسة."

(17) ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي. **تفسير القرآن العظيم**، القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي، د.ت.، ج1، ص365. "أي استشعر منهم التصميم على الكفر..."

كيف يعمل العقل والحسّ في الوحي؟

حين يقرأ الإنسان آية قرآنية فإنَّه يحاول إدراك معنى اللفظ في الاستعمال اللغوي العادي والاصطلاحي، وإدراك معنى اللفظ ضمن مجمل الألفاظ في القرآن، ومن ثَمّ يحاول فهم دلالة اللفظ في السياق. فمبدأ الوحدة البنائية في القرآن الذي يقتضي تفسير القرآن بالقرآن، هو محدد منهجي أساسي في التعامل مع القرآن الكريم بوصفه مصدراً للمعرفة. وقد يحتاج القارئ إلى الاطلاع على بيان نبوي يتعلق بالآية القرآنية الكريمة ينقل الدلالة إلى معنى خاص، وهو في ذلك كله يوظف ما يتاح له من كتب التفسير والحديث.

بعض آيات القرآن أحكام شرعية واضحة تتعلق بما أصبح معلوماً من الدين بالضرورة، مثل أحكام المعاملات المالية، أو أحكام العلاقات الاجتماعية. مثل هذه الآيات قد لا تكون موضوعاً لكثير من البحث والمراجعة في دلالاتها. ومع ذلك فإن التأمل فيها ربما يتيح له التوصل إلى ألوان من الحكمة تكشف عنها الخبرة المعاصرة في أبواب العلوم الكونية أو الاجتماعية أو النفسية، وغيرها. وكثير مما يكتب اليوم في باب الإعجاز العلمي يقع في هذا المجال.

لكن آيات قرآنية أخرى، تكون أدعى للنظر والتفكر والتأمل والتدبر، الذي ربما يفتح الله على الإنسان فيها بدلالات لم تخطر ببال غيره من السابقين أو المعاصرين، فالقرآن كريم، كثير العطاء، لا تنتهي عجائبه، ولا يخلق على كثرة الرد. مثل هذه الآيات أدعى أن لا يقف الباحث عند كلام المفسرين والمحدثين، بعد الاطلاع عليه، بل يعالج ما يصل إليه من معنى الآية في ضوء الخبرة البشرية المعاصرة عن موضوعها، فإن كانت الآية القرآنية مِنْ أمر الخبرة الحسية في الحياة الدنيا، سواءً أكانت تتعلق بالوجود المادي أم الاجتماعي أم النفسي، فإنَّ على الإنسان أن يتأمل ويتدبر في النص القرآني ودلالاته، ويسعى لاكتساب المعلومات الطبيعية أو الاجتماعية أو النفسية ذات العلاقة بالنص بأدواتها المناسبة وبمستوياتها المناسبة. فالمعلومات التي يكتسبها الإنسان عن أشياء الوجود وأحداثه أو ظواهره تقع في مستويات مختلفة، فمنها ما يكون وصفاً

بسيطاً كميّاً أو كيفياً، أو وصفاً مركباً يصف الشيء أو الظاهرة أو العلاقة بقانون أو معادلة، ومنها ما يكون تفسيراً لسبب وجود الأشياء والظواهر، ومنها ما يكون توقعاً وتنبؤاً بحكم اضطراد الظواهر وانتظام حدوثها... وهكذا.

وقد يتعلق موضوع الآية القرآنية بالغيب، فتكون تقريراً عن أحداث يوم القيامة، وما يكون بعده من حساب يسير أو عسير، ونعيم مقيم في الجنة، أو عذاب بئيس في جهنم. ومِن ثَمَّ فإنَّ موضوع التفكر في دلالات الآيات هو فوق مستوى الحس البشري. ومع ذلك فإنَّ الوحي رسالة إلى البشر وليس إلى الملائكة. لذلك فإنَّ دلالة الألفاظ في القرآن تعتمد على الخبرة البشرية، وتأتي في حدودها ﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ ﴾ [الإسراء: 90– 95]

ثم إنّ ما فوق خبرة الحسِّ المادية الدنيوية جاء الخبر عنه في القرآن الكريم بالدلالة الحسية البشرية: ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾ ﴾ [محمد: 15] (فالأنهار، والماء، واللبن، والخمر والعسل، والثمرات... عند الإنسان هي ما يعرفه منها بخبرته الحسية عنها، لكن هذه الأشياء التي يعرفها ليست هي الأشياء التي سيجدها في الجنة، وإن كانت تشبهها؛ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [البقرة: 25]، ففي الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

والخلاصة أن الفصل بين عمل الحس وعمل العقل في فهم الدلالات الممكنة لنصوص الوحي أمر متعذر، فالتكامل بين عمل كلٍّ منهما هو القاعدة.

كيف يعمل العقل والحس في العالَم؟

إقرا باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. هذه قراءة، تتم بإعمال الحواس في المشاهدة، والوصف الكيفي، والتقدير والحساب الكمي، واكتشاف العلاقات والقوانين والسنن، بملاحظة انتظام سلوك الأشياء ووقوع الأحداث، ومن ثم التنبؤ بالأحداث والظواهر والاستعداد لاستثمار ما يلزم استثماره، وتجنب ما يلزم تجنبه من آثار ذلك كله، ثم إعمال العقل بوضع النظريات التفسيرية للمشاهدات والظواهر، وصياغة كل ذلك ضمن رؤية كونية شاملة، تجعل هذا الجهد ممارسة لمتطلبات التمكين الذي منحه الله عزَّ وجلَّ للإنسان في هذا الكون، وتوظيفاً لحقيقة التسخير الذي جعله الله في هذا الكون، وبذلك تتحقق دلالات حمل الإنسان للأمانة واستخلافه في الأرض.

وحتى نطور منهجاً للتعامل مع القرآن الكريم، بوصفه مصدراً للمعرفة يفيدنا التمييز بين صورتين في علاقة القرآن بالوجود الذي يحيط بالواقع البشري. الصورة الأولى هي الصورة التي تنزَّل القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم، حيث تنَزَّل في واقعٍ محدد، يعيش الناس فيه قضايا ومشكلات وظروفاً، فتكون الآيات النازلة علاجاً لقضايا ذلك الواقع، وإجابات عن أسئلته. أما الصورة الثانية فهي صورة الواقع الذي نعيشه اليوم. وفي واقعنا الذي نعيشه اليوم -بطبيعة الحال- قضايا ومشكلات وأسئلة، لكننا لا نقرأ القرآن لنستمد منه الهداية اللازمة لحل مشكلاتنا، بل نكتفي في معظم الأحيان بقراءة القرآن من أجل ما في قراءته من أجر وثواب، أو لتعزيز الأحكام الفقهية التي نتعلمها بالشاهد القرآني، أو للأُنس بقراءته واستشعار السكينة والطمأنينة النفسية، وكل ذلك خير وبركة. لكننا ما لَمْ نحاول أن نقيم التفاعل بين القرآن الكريم وقضايا الواقع الذي نعيشه ومشكلاته وأسئلته، فلن نجد القيمة المنهجية والمعرفية للقرآن في حياتنا.

ومما يسهم في تطوير منهج التعامل مع القرآن -بوصفه مصدراً للمعرفة- أن نُقْبِل على القرآن ومعنا مشكلات تم تحديدها، وأزمات نود الخروج منها، وأسئلة تحتاج إلى إجابات، وما أكثر ما لدينا من كل ذلك في واقعنا المعاصر! لقد

ألفنا في مجتمعاتنا المعاصرة أن نذهب بمشكلاتنا إلى الخبراء، نستعطي منهم الحلول، فقد استعصت علينا الحلول، وفي الغالب فإنَّ الخبراء يصرفون الجزء الأكبر من الجهد والوقت في دراسة المشكلة وخلفياتها وتاريخها وحجمها وأسبابها والظروف المحيطة بها وغير ذلك، قبل أن يقترحوا علينا حلَّ المشكلة. وتكون مشكلتنا في مثل هذه الحالات مشكلة منهجية في المقام الأول، وهي عجزنا عن القيام بالخطوة الأولى في أي جهد بحثي: تحديد المشكلة وصياغتها بصورة تقود الطريق إلى كل الخطوات اللاحقة في مناهج البحث.

واضح إذن أنَّ تحديد المشكلة يستلزم فهم الواقع الذي تقع فيه المشكلة؛ الواقع الخاص بالأشياء المادية والظواهر الطبيعية، أو الواقع الخاص بالعلاقات الاجتماعية والدولية، أو الواقع الخاص بقضايا النفس البشرية وأحوالها وتقلباتها. فهذا الواقع مصدر للمعرفة المتعلقة بتفاصيل المشكلة التي تحتاج إلى حلّ، متى بدأت المشكلة؟ وكيف ظهرت؟ وما حجمها؟ وما الملابسات التي رافقتها مكاناً وزماناً وأشخاصاً؟ وهكذا. وسوف نجد أنَّنا نحتاج من أجل ذلك إلى مراجعة سجلات الواقع عن المشكلة، وتحليل البيانات في هذه السجلات والصور والوثائق، ومقابلة المعنيين واستطلاع آرائهم ومواقفهم، وتحليل ما فيها من انسجام أو تناقض، وربما يحتاج الأمر إلى استخدام أدوات توسيع دائرة الحس البشري العادي في التجربة والكشف والاختبار، من مثل تحليل فئة الدم البشري، والتحليل الجيني، وغير ذلك.

فالعالَم الذي يحيط بنا في مختلف مستوياته الطبيعية والاجتماعية والنفسية، هو واقع لا بد من دراسته وفهمه، وهذا هو ما يطلق عليه في الدراسات المعاصرة "فقه الواقع" ولا بد من أن تتم دراسته بالأدوات والأساليب المناسبة لتحقيق هذا الفقه، وذلك أمر ضروري لفهم علاقة القرآن بهذا الواقع، ولاستكمال قدرتنا على إجراء التفاعل اللازم بين القرآن والواقع، من أجل إصلاح هذه الواقع والخروج من مشكلاته وأزماته.

نستخلص من ذلك كله أن قراءة الوحي تتم بإعمال العقل والحس من أجل فهم العالم والتعامل معه؛ وفي الوقت نفسه تتم قراءة العالم بإعمال العقل والحس من أجل فهم الوحي والتعامل معه.

رابعاً: أدوات التفكير والبحث والسلوك

في الحديث عن أدوات المنهجية يمكن التمييز بين:

- أدوات التفكير.
- وأدوات البحث.
- وأدوات السلوك.

وليس من السهل التمييز الحاسم بين الأدوات في هذه المجالات الثلاثة، فمصطلح الأدوات قد لا يكون في مستوى الملاءمة نفسه فيها. لكن هذه مناسبة لتأكيد أهمية التمييز بين منهجية التفكير، ومنهجية البحث، ومنهجية السلوك أو الممارسة. ثم إن هذه المجالات الثلاثة متداخلة، فمع أن التفكير يمكن أن يتم في غير البحث، فإن البحث لا يتم دون تفكير. أما السلوك فكثير من أنماط السلوك العملي يقوم بها الإنسان بحكم العادة والألفة، فلا يرافقها كثير من التفكير، لكن من المؤكد أن أنماطاً أخرى من السلوك تقتضي بالضرورة تفكيراً قد يقع في مستويات مختلفة من الجهد والعمق.

وأدوات التفكير تطلق أحياناً على العمليات الذهنية التي يقوم بها الإنسان في أثناء تعامله مع قضية معينة للوصول إلى النتيجة التي يسعى إليها، ومن هذه العلميات الوصف الكمي أو القياس، والاختصار، والتوسع، والإضافة، والتصنيف، وإعادة الترتيب، والافتراض... إلخ. وتستخدم بعض البرامج التعليمية والتدريبية بعض التدريبات التي تنمي مهارات تفكيرية معينة، وتكون هذه التدريبات معدة ضمن الوحدة التعليمية أو حقيبة التدريب، وتكون في صورة ورقة أو مجموعة من الأوراق، يقرأها المتدرب ويقوم بإجراءات معينة ليحل فيها مسألة أو يجيب فيها عن سؤال. ويطلقون عليها أدوات تفكير مثل التدريب على تحديد الأسباب، أو التدريب على ترتيب الأولويات، أو التدريب على تقديم الدليل.

وتتداخل دلالات مصطلح "أدوات التفكير" مع دلالات مصطلح "أنواع التفكير"، ومصطلح "مهارات التفكير". ويظهر ذلك في بعض برامج التدريب الشائعة الخاصة بتطوير مهارات التفكير. ومن هذه البرامج على سبيل المثال البرنامج الذي طوره الطبيب وعالم النفس المالطي الأصل "إدوارد دي بونو" المسمى: "كورت"، وبرنامج "القبعات الست" وغيرها؛ فموضوع هذه البرامج هو أنواع التفكير التي يمارسها الإنسان، ومهارات استعمالها بوصفها أدوات لتطوير مهارات التفكير.

وتتداخل دلالات أدوات التفكير مع دلالات "طرق التفكير"، و"أساليب التفكير"، و"الوسائل" المعينة على التفكير. وتقع كثير من الأدبيات ذات العلاقة بالطرق والأساليب والوسائل ضمن برامج ما يسمى ببرامج التدريب في مجال التنمية البشرية، التي أصبح لها أسواق رائجة في السنوات الأخيرة.[18]

لكن مفهوم أدوات التفكير يشمل ما يقوم به الإنسان لتنظيم تفكيره حتى تصبح الأفكار التي يصل إليها أكثر وضوحاً، أو للربط بين هذه الأفكار، أو للتعبير عنها في رسومات وأشكال تمثيلية. وحين ترتبط الأفكار بمثل هذه الرسومات والأشكال، يتحقق هدف ربط الأفكار المجردة بأشكال ذات طبيعة حسية، فتصبح واضحة، يسهل تذكرها، وتعليمها، واستيعابها، ومراجعتها واختبارها ونقدها.

أدوات جمع البيانات

ومن ذلك ما يقوم به الإنسان بصورة غير واعية أحياناً، من كثرة التكرار، حين يعبر عن تلازم الإثنين بحركة أصبعي السبابة والوسطى من يده، وحين يحرك يده بصورة مستقيمة، أو بصورة متعرجة ليشير إلى استقامة الطريق أو اعوجاجها.

وليس من الضروري أن تكون أدوات التفكير ذات طبيعة حسية، فقد تكون هذه الأدوات فكرية خالصة، حين تكون الأداة فكرة مألوفة، تعبر عن فكرة أقل ألفة.

وتعدّ أساليب ضرب الأمثال الأدوات الأكثر استعمالاً في كل لغات العالم، حين يربط المثل الفكرة بصورة ذهنية حسية عن أشياء طبيعية، أو علاقات

(18) يمكن في هذا المقام تصميم موقف تدريبي، يقوم فيه المتدربون بالبحث عن أمثلة على برامج تنمية بشرية تستعمل أدوات وطرقاً وأساليب للتفكير، وتناقش خبرات المتدربين المتعلقة بهذه البرامج.

اجتماعية، أو خواطر نفسيَّة.

وقد أكثر القرآن الكريم من هذا الأسلوب في توضيح بعض الأفكار للناس، سواءً بضرب أمثلة مما حصل للأمم السابقة، أو بظواهر وأحداث طبيعية، أو بظواهر وأحاسيس نفسية، أو بأمثلة من خبرة الحياة الدنيا لتقريب صور محددة مما سوف يقع يوم القيامة. وكذلك الأمر في الحديث النبوي الشريف؛ إذ نجد أنَّ الرسول صلّى الله عليه وسلم قد استخدم أسلوب ضرب المثل في كثير من الحالات.[19]

أدوات البحث

يمكن تناول الحديث عن أدوات البحث من خلال التمييز بين ثلاثة مستويات من أدوات البحث:

أدوات تحليل البيانات

- أدوات جمع البيانات البحثية.
- وأدوات تحليل البيانات البحثية.
- وأدوات تفسير البيانات البحثية.

وأكثر الأدبيات المنشورة في كتب مناهج البحث تتعلق بأدوات جمع البيانات من مصادرها؛ إذ يجري الحديث عن البيانات الكمية والبيانات الكيفية، واستخدام الاختبار أداة لقياس تحصيل الطلبة، واستخدام أداة الاستبيان لجمع الحقائق من أفراد عينة الدراسة، واستخدام أداة استطلاع الرأي في الموقف الذي يتبنّاه مجتمع معين أو عينة ممثلة لهذا المجتمع، ومقياس الاتجاه، وغير ذلك من الأدوات مثل تحليل الوثائق والسجلات وإجراء المقابلات، والقيام بالملاحظة أو المشاهدة التشاركية، ، وتحليل المحتوى أو المضمون... إلخ. وتصف الكتب المتخصصة طرق بناء كل نوع من أنواع هذه الأدوات، والحالات والمواقف البحثية التي تصلح لها، وشروط استخدامها وسلبيات استعمالها وإيجابياته. والأهم من ذلك كيفية التحقق من توفر خصائص الصدق والثبات والموضوعية في الأداة قبل استعمالها.

(19) يمكن تصميم موقف تدريبي أو أكثر يتذكر فيه المتدربون آيات قرآنية كريمة، وأحاديث نبوية شريفة، في مجال ضرب الأمثال، ومناقشة عدد من الأمثال من حيث كون المثل أداة للتفكير، ومن حيث وظيفة المثل، ودلالته.

openkan.com

ومن المعروف أنَّ اختيار الأداة المناسبة لجمع البيانات في بحث معين يتوقف على سؤال البحث، ونوع البيانات المطلوب جمعها، وطبيعة أفراد المجتمع وحجم العينة، وطبيعة القرار الذي سوف يتم اتخاذه بناء على نتائج البحث، إضافة إلى شروط أخرى لكيفية إدارة عملية استخدام الأدوات، والاعتبارات الأخلاقية والنفسية التي تجب مراعاتها. وكل هذه موضوعات متوفرة في كثير من كتب مناهج البحث المتخصصة، ولا داعي لمزيد من الحديث عنها في هذا المقام.

وتتعلق أدوات تحليل البيانات، بإجراءات التحليل الكمية (الإحصائية) أو النوعية (الكيفية) أو المختلطة (البحوث الكمية والكيفية). وثمة كتب منهجية متخصصة لكل نوع من هذه الأنواع الثلاثة من البحوث.

فالبحوث ذات البيانات الكمية يتم تحليل بياناتها باستخدام أدوات (أو طرق أو برامج):

- الإحصاء الوصفي مثل الجداول التكرارية، ومقاييس النزعة المركزية والمنحيات البيانية، ومقاييس العلاقات، ومقاييس التغير، والأعمدة أو القطاعات البيانية والنسب المئوية، والتنظيم الرتبي وغيرها.
- الإحصاء التحليلي باستخدام الاختبارات الإحصائية مثل اختبارات العلاقات، واختبارات الفروق بين المتوسطات، واختبارات تحليل التباين، واختبارات تحليل التباين المصاحب، وغيرها.
- والطرق الإحصائية اللامعلمية مثل كاي تربيع وولكوكسن وغيرها.

وقد استخدمت في السابق إجراءات حسابية ومعادلات جبرية في درجات متفاوتة من التعقيد، وكانت تأخذ وقتاً طويلاً في التحليل. أما الآن فإنَّ البرمجيات الحاسوبية تستطيع إجراء التحليل الإحصائي في ثوانٍ معدودة بعد أن يتم تنظيم البيانات وإدخالها إلى الحاسوب بالطريقة المناسبة.[20]

أما البحوث ذات البيانات النوعية أو الكيفية، فهي بيانات وصفية في صورة

(20) ملكاوي، فتحي، وأبو عوده، أحمد. **أساسيات البحث العلمي في التربية والعلوم الإنسانية**، مرجع سابق، ص257.

ملاحظات مدونة بطرق مختلفة مثل: الإجابات التي يسجلها الباحث عند إجراء المقابلات البحثية، أو الملاحظات التي يسجلها في عمليات الملاحظة التشاركية، وغير ذلك من صور السرد المكتوب أو المخزَّن في تسجيلات صوتية أو تسجيلات بالصوت والصورة (فيديو)، أو وثائق وسجلات أو نماذج المشاهدة... إلخ. وثمة تفاصيل عن طرق تحليل هذه البيانات تقدمها الكتب المتخصصة. وتتعلق هذه التفاصيل بإجراءات التعامل مع هذه البيانات لتحويلها من مادة خام إلى مادة قابلة للتحليل. ويلزم عادة اختيار وحدات تحليل مناسبة لطبيعة البحث. وبصورة عامة تكون وحدات التحليل أقرب إلى الأفكار الجزئية وملاحظة السياقات التي تظهر فيها هذه الأفكار، وأنماط ظهورها.

مثال ذلك تحليل المحادثة conversation analysis وصور التفاعل اللفظي التي تتم في بيئة معينة أو في سياق اجتماعي معين، يستهدف تتبع مؤشرات التفاعل اللازم للمحافظة على النظام الاجتماعي القائم، وأية مؤشرات تخل بهذا النظام. ويتم ذلك برصد التواصل اللفظي وغير اللفظي المباشر وغير المباشر للبحث عن الدلالات والمعاني التي تكمن في هذا التواصل، ورصد الأحداث من حيث تتابعها وتغير أنماط الشحن الانفعالي. وقد يكون موضوع الاهتمام في الرصد والتحليل محتوى الخطاب discourse analysis وليس صورته، للكشف عن التوجهات أو التحيزات الثقافية أو العرقية أو السياسية التي يتضمنها الخطاب، والطريقة التي تم فيها تنظيم الحديث عن موضوع معين؛ أي موضوع الخطاب. وقد يكون موضوع التحليل هو نوع التواصل وتنميطه ضمن قائمة من العناوين المتعارف عليها في ثقافة المجتمع المحلي، مثلاً سخرية، نميمة، جدل، تهديد، تفاؤل،... إلخ.

أدوات تفسير النتائج

والتحليل الكيفي ذو طبيعة استقرائية في الأساس، إذ يهدف إلى تركيب إبداعي حين ينتقل من حقائق وبيانات جزئية إلى بناء نتيجة عامة أو نظرية مؤسسة في تلك البيانات، وليست من المعطيات المسبقة. وتمتاز عملية تحليل البيانات الكيفية في أنها تتم في أثناء جمع البيانات وليس بعد انتهائها؛ إذ يصل

الباحث إلى نتيجة مبدئية، في مرحلة معينة من الملاحظات، ثم يختبرها بمزيد من الملاحظات، فيعززها أو يغيرها جزئياً أو كلياً. وتمتاز عملية تحليل البيانات الكيفية بأنها عملية انتقائية eclectic، لا يتم تحديدها واتخاذ قرار حولها مسبقاً، بل يختار الباحث أدوات تحليل معينة حينما يجد أنّه يحتاجها.

وتتضمن عملية تحليل البيانات الكيفية استراتيجيتين متلازمتين ومتقابلتين في آن واحد؛ الأولى: هي استراتيجية تفكيك الجسم الكبير من البيانات الكيفية وإعادة تنظيمها في فئات تسهل المقارنة والربط بأسئلة البحث، والثانية هي استراتيجية التفسير السياقي؛ أي تفسير البيانات الكيفية في سياق كلي متسق يقيم الترابط بين مجمل السرد وأحداثه. ويتم الجمع بين هاتين الاستراتيجيتين أحياناً بالطريقة التي تعرض فيها نتائج التحليل، مثلاً: في صورة مخططات أو خرائط مفاهيمية، أو مصفوفات، أو أشكال وجداول تربط بين عناصر البناء النظري الذي يتم التوصل إليه.[21]

وقد لاحظ منظرو البحث العلمي في العلوم الاجتماعية والإنسانية أن الاعتماد على البحوث الكمية وحدها أو البحوث الكيفية وحدها لا يوصل بالضرورة إلى أفضل النتائج، وأن بعض المواقف أو الموضوعات البحثية تستدعي استخدام نوعي البحوث معاً، فيختار الباحث من عناصر البحث الكمي وعناصر البحث الكيفي ما يلزم لبحثه. وقد بدأت تظهر في السنوات الأخيرة كتب منهجية تعالج ما سمي بمناهج البحث المختلط.[22]

أما أدوات تفسير النتائج البحثية، فنمهد للحديث عنها بما هو مألوف في علوم تفسير القرآن الكريم، فتفسير القرآن الكريم هو اجتهاد المفسر في معرفة دلالات النص القرآني ومعانيه، معتمداً على عدد من أدوات التفسير مثل اللغة، وأسباب النزول، والناسخ والمنسوخ وغيرها. ويستعمل بعض الباحثين مفاهيم

(21) Flick, Uwe. *An Introduction to Qualitative Research*. Edition 4, Los Angeles: Sage, 2009, p. 147–180.

(22) Teddlie, Charles and Tashakkori, Abbas. *Foundation of Mixed Methods Research: Integrating Quantitative and Qualitative Approaches in Social and Behavioral Scineces*. Los Angeles: Sage, 2009.

لغوية معينة ويحاولون فهم دلالات النص القرآني على أساسها، ففي تفسير دلالات الأسماء الأعجمية (أو المشتبه في عجمتها) في القرآن الكريم، استخدم أحد الباحثين ست أدوات سماها "أدوات تفسيرية" وهي: الترادف، والتقابل، والتعريب، والترجمة، والمشاكلة، والسياق العام،[23] ليتوصل إلى أن القرآن الكريم يفسر الأعلام الأجنبية في سياق آياته نفسها من خلال الأدوات المشار إليها.

ويستخدم كثير من مفسري القرآن هذه الأيام العلوم المعاصرة بوصفها أدوات في فهم دلالات النص القرآني. فقد طورت ثقافة الحداثة وما بعد الحداثة مقولات ذات قيمة كبيرة في عمل المفكرين والفلاسفة، وبعض هذه المقولات أصبحت "مداخل منهجية" في فهم الظواهر والنصوص وتفسيرها، لكن بعضها أصبح نظريات متكاملة أو مذاهب فكرية تحكم عمل المفكر من حيث فهمه لما يريد فهمه، وبخاصة النصوص المكتوبة سواءً كانت نصوصاً دينية أو شعرية أو تاريخية. فالتأويلية مثلاً أصبحت أداة تفسيرية لإعطاء الدلالات التي يريدها القارئ للنص، بقطع النظر عما يريده صاحب النص.

وعلى كل حال فالكتابات في أدوات تفسير النتائج البحثية قليلة، لكنها مستبطنة عادة في توجهات الباحث ورؤيته الكونية من جهة، والموقف البحثي أو البيئة البحثية من جهة أخرى، لأن الباحث لا يبدأ خطوات البحث من صفحة بيضاء، فلديه خبرة جيدة حول موضوع البحث نتيجة ما يجريه من مسح للبحوث السابقة، ولديه توقعات أو رغبات في ما يمكن أن يتوصل إليه من نتائج. وهو يعرف مثلاً أن نتائج معينة من بحث محدد من البحوث السابقة قد ظهرت لأسباب معينة، ولم تظهر النتائج نفسها في بحث آخر لأسباب أخرى.

ومن الأمثلة على تفسير نتائج البحوث باستخدام إطار مرجعي معين، ما يمارسه الباحثون في بحوث التقويم التربوي، فمثلاً عندما تظهر نتائج التقويم التربوي لتحصيل فئة معينة من المتعلمين فإننا نفسر هذه النتائج ضمن الإطار

(23) أبو سعدة، رؤوف. **من إعجاز القرآن**، القاهرة: دار الهلال، 1993–1994م.

المرجعي للتقويم: evaluation frame of reference، إذ يمكن التمييز بين ثلاثة أنواع من الأطر المرجعية للتقويم:

- التقويم محكي المرجع criterion referenced evaluation ويضع حداً معينا للتحصيل يكون أساساً للحكم على النتائج، مثلاً: علامة النجاح هي 60 ٪ من الحد الأعلى للعلامة.
- التقويم معياري المرجع norm referenced evaluation ويكون الأساس في الحكم هو المقارنة مع الوسط الذي تحصل عليه مجموعة معيارية، مثلاً: مقدار الانحراف (الزيادة أو النقصان بمقياس الدرجة أو أجزاء الدرجة) عن الوسط المعياري.
- التقويم ذاتي المرجع self-referenced evaluation حيث يقارن الفرد بنفسه، أي يقارن تحصيله بعد مرحلة معينة بما كان عليه في المرحلة السابقة، وملاحظة نسبة التغير في تحصيله، ودرجة الانتظام في هذا التغير.

ويمكن تفسير النتائج في ضوء مدى الثقة confidence interval واختبار الدلالة، الذي تم تحديده لنتائج الاختبار الإحصائي للفرضيات البحثية، ومدى الثقة هذا هو أداة إحصائية للحكم على النتائج؛ أي ملاحظة مدى توفر أدلة إحصائية كافية لرفض الفرضية البحثية أو عدم توفر أدلة كافية لرفضها. ويتم تحديد مدى الثقة 1 ٪، أو 5 ٪، أو 10 ٪ في ضوء طبيعة القرارات التي يود الباحث أو المجتمع أن يتخذها في ضوء هذه النتائج، وبطبيعة الحال فإن هذه النسبة أيضاً تتوقف عن الميدان البحثي، ففي العلوم الدقيقة ليس من السهل أن يكون ثمة احتمال بوجود خطأ مرة واحدة من كل مائة مرة، لأن هذه نسبة كبيرة جداً. وفي العلوم الاجتماعية والإنسانية ربما يسمح باحتمال وجود خطأ في نتائج البحث خمس مرات من كل مائة مرة. وربما تغامر وزارة التربية والتعليم باتخاذ قرار في ضوء نتائج البحث حتى لو كان احتمال وقوع الخطأ فيها 10 ٪ من الحالات، لأسباب اقتصادية أو اجتماعية معينة.

obeikan.com

ومع أن النظريات أو النماذج النظرية يتم بناؤها في ضوء نتائج البحوث، فإن هذه النظريات والنماذج التفسيرية النظرية تكون، بعد أن يتم بناؤها، أدوات تفسير في كثير من البحوث. فالباحثون الاقتصاديون يفسرون بعض الظواهر الاقتصادية التي يتوصلون إليها نتيجة للبحث، اعتماداً عن معرفتهم النظرية المسبقة عن الممارسات الاقتصادية وآليات عمل السوق. وكذلك الأمر في كثير من العلوم الأخرى.

ومن المتوقع أن تتطلب البحوث الكيفية أدوات تفسير لنتائج البحوث تكون من طبيعة كيفية غير إحصائية، ذلك أن هذه البحوث تسعى للوصول إلى دلالات ومعان ترتبط برؤية الباحث إلى العالم.[24] وعلى كل حال فإن تفسير نتائج هذه البحوث يتطلب قدراً من الحدس والإبداع، ويتطلب قدرة تفسيرية متميزة في ربط النتائج بالخلفية الثقافية لمجتمع الدراسة، عاداته الاجتماعية، وممارساته الاقتصادية، وقيمه ومعاييره الأخلاقية، ومرجعياته الدينية... إلخ.

وقد سبقت الإشارة إلى استراتيجية ضرب المثل بوصفها أداة من أدوات المنهجية، ونوهنا بكثرة استعمال القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف لهذه الاستراتيجية. وربما يكون استعمال الأمثال بوصفها أدوات لتفسير النتائج على وجه الخصوص.

خامساً: معادلة التكامل المعرفي

هذه المعادلة هي محاولة لتلخيص مجمل ما يمكن فهمه عن مصادر المعرفة وأدواتها من منظور إسلامي، والربط بين العناصر المختلفة التي يمكن أن يتضمنها ذلك الفهم. وتتكون هذه المعادلة من قسمين؛ الأول: هو المصادر، والثاني: هو الأدوات، وصفة التكامل المعرفي في المنظور الإسلامي تظهر في ثلاثة مستويات: تكامل المصادر، وتكامل الأدوات، وتكامل المصادر والأدوات.

فللمنهجية من منظور إسلامي مصدران لا ثالث لهما هما: الوحي والعالَم، وأيُّ تعامل معرفي ومنهجي في هذا المنظور لا بدَّ فيه من مراعاة التكامل بين

(24) Rossman, G.B., and Rallis, S. F. *Learning in the Field: An introduction to Qualitative Research*, 2nd Edition, Thousand Oaks, CA: Sage, 2003, pp. 3536–

المصدرين؛ لأنَّ الإنسان المخلوق في هذا العالَم لا يملك إلا أن يتعامل معه في مستوياته الثلاثة: العالَم الطبيعي والعالَم الاجتماعي والعالَم النفسي. والإنسانُ يتعامل مع مستويات العالم بصرف النظر عن مرجعياته الفكرية والدينية. والإنسانُ المسلم الذي يؤمن بالوحي الإلهي هو في موقع التكليف والتمكين للتعامل مع العالَم في ضوء هداية الوحي، وهدايةُ الوحي هي في الأساس ترشيد لوعي الإنسان تُجَاه العالَم وسعيه فيه.

تلك هي حقيقة التكامل بين الوحي والعالَم بوصفهما مصدرين للمعرفة والتعامل المنهجي.

وللمنهجية من منظور إسلامي أداتان لا ثالث لهما، هما العقل والحسّ، وليس ثَمةَّ طريقة لعمل الحس دون عمل العقل، وليس ثَمَّة وسيلة للعقل في أن يمارس عمله خارج إطار الواقع المحسوس، حتى إنَّ القضايا الذهنية المجردة يتصورها العقل البشري في سياق خبرته الحسية، ويُنصح العقل في الإطار الإسلامي أن لا يبذل أيَّ جهد فيما لا طائل من ورائه، أو لا ينبني عليه عمل، فالله سبحانه: ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾ [الشورى: 11] لذلك لا داعي للتفكير في ذاته، وحسب الإنسان أن يفكر في مخلوقات الله التي تدل عليه سبحانه.

وتلك هي حقيقة التكامل المعرفي بين العقل والحسّ، بوصفهما أداتين للمعرفة والتعامل المنهجي.

وتظهر المعادلة أنَّ استمداد المعرفة من مصدر الوحي يتطلب عمل كل من العقل والحسّ معاً، كذلك فإنَّ استمداد المعرفة من العالَم يتطلب عمل كلٍ من العقل والحسّ معاً.

وتلك هي حقيقة التكامل المعرفي بين المصادر والأدوات.

والمخطط الآتي يحاول تمثيل هذه الأنواع الثلاثة من التكامل.

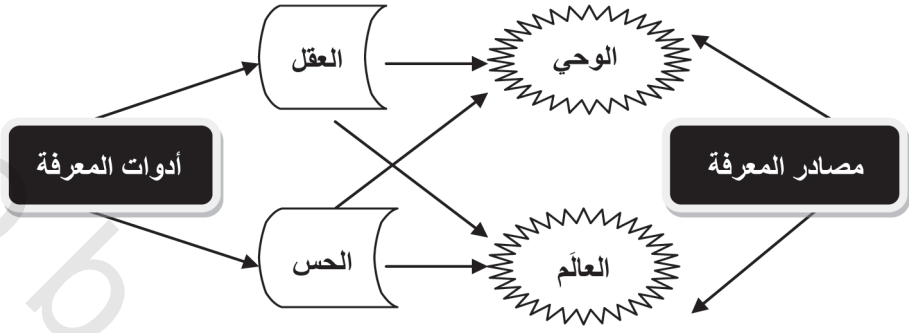

معادلة التكامل المعرفي

وللفطرة التي فطر الله المخلوقات عليها موقع مهم في إدراك التكامل بين مصادر المعرفة وأدواتها، لفهم مقاصد الحق من الخلق، وتوجيه سعي الإنسان المستخلف في الأرض، وجهده العقلي والعملي، لتحقيق هذه المقاصد. فالوحي بوصفه مصدراً لتلقي الهدىٰ، ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾ [البقرة: 38]، والعقل بوصفه أداة لفهم مقاصد الوحي ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الجاثية: 5] يتكاملان في سعي الإنسان للوصول إلىٰ الدلالة المقصودة بهذا الوحي. والله سبحانه هو الأعلم بحقيقة مصالح الإنسان في الدنيا، فمكَّن له في الأرض، وجعل له فيها معايش:﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: 56]؛ فأي سبب يؤدي إلىٰ الإخلال بتوازن الأرض ومكونات بَرِّها وبَحْرِها وجَوِّها، هو إخراج لها عن فطرتها، فاستعمال الأسلحة البيولوجية والكيميائية والنووية مثلاً، التي يبقىٰ أثرها في التدمير والتشويه، أزماناً متطاولة، إفساد للأرض. وصور الفساد نتتبعها بالعقل والمشاهدة والتجربة والقياس، وغيرها من الأدوات العقلية والحسية، والصورة الفطرية لحالة الصلاح قبل الفساد، هي ما يكشف عن صور الفساد بعد الصلاح.

والفطرة في العلاقات بين الناس تقوم علىٰ تحقيق العدل وحفظ الحقوق والوفاء بالكيل والميزان؛ فذلك هو الأصل الذي تتحق به مصالح الناس، أما التطفيف في الكيل والميزان، فهو فساد في العلاقات السوية بين الناس، يقع بسببه الظلم وتضيع الحقوق، وتتعاظم البغضاء والشحناء في قلوب الناس ﴿وَلَا

﴿نُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الأعراف: 85]. فالنص القرآني يأمر بالإيفاء وينهى عن البخس، ويتوعد المطففين بالويل، ويعُدُّ عدم الامتثال للأمر إفساداً في الأرض بعد إصلاحها. والقدرة العقلية للإنسان، مسلحة بمنافذها الحسية، تدرك دلالة النص القرآني من خلال مشاهدة صور الإيفاء وحالات البخس، وهي صور وحالات تتغير مع تغيرات الزمان والمكان. وهكذا فإن الفطرة البشرية السليمة تعين أدوات المعرفة في فهم دلالات الوحي الذي يمثل المصدر والمرجع، وتعين في التمييز العملي بين حالات الإيفاء والبخس، وحالات الإفساد والإصلاح.

والفطرة في العلاقات الجنسية التي تتحقق بها المصالح الحقيقية للناس، هي التمكين للمودة بين الزوجين، وحصول السكن النفسي والإحصان لكل منهما، وحفظ النوع بالإنجاب، وتحقيق النسب والصهر بين العائلات ثم تكوين الشعوب والقبائل، وما يتحقق من كل ذلك من تكافل وتكامل وتماسك في النسيج الاجتماعي. وكل علاقة جنسية تشذُّ عن الفطرة حين تتم خارج إطار الزوجية، أو تكون علاقات مِثْلِيَّة سحاقاً أو لواطاً، هي فساد في الأرض الصالحة وخلل في البناء النفسي وتدمير للعلاقات الاجتماعية. فالوحي مرجعية تأمر بحفظ الفروج إلا على الأزواج، والعقل أداة لبيان حكمة ذلك ودلالاته، والفطرة تعين في التمييز بين العلاقات السليمة التي تتحقق بها المصالح، والعلاقات الفاسدة التي تضيع فيه المصالح، وتكون من جرائها المفاسد وألوان العنت والضرر النفسي والاجتماعي.

كل ذلك يؤكد ضرورة معرفة الفطرة التي فطر الله المخلوقات عليها، حتى يتحقق التكامل بين المصادر والأدوات.

خاتمة

يتبين لنا مما قدمناه في هذا الفصل أنَّ مصدري المعرفة البشرية: الوحي والعالَم يتكاملان في تمكين الإنسان من استمداد المعرفة منهما، صحيح أن الله سبحانه هو منزل الوحي، وأنه خالق الكون، فهو سبحانه المصدر في النهاية؛

المصدر الوحيد. ولكننا ميزنا ضمن ما يتيحه الله سبحانه للإنسان من المصادر بين الوحي والعالَم بوصفهما مصدرين متمايزين في خصائصهما. وقد بيّنا ما نقصده بالوحي بصورة محددة بأنه القرآن الكريم، والسنة النبوية، فهُما في النهاية المرجعية التي لا تعلو عليها مرجعية أخرى. وبيّنّا ما نقصده بالعالَم في أقسامه الثلاثة:

- العالم الطبيعي؛ عالم الأشياء المادية في الكون.
- والعالم الاجتماعي؛ عالم الناس أفراداً وأسراً، وشعوباً وقبائل ولغات، وما يكتسبه هذا العالم من ثقافات ويبْنِيه من حضارات.
- والعالم النفسي؛ عالم النفس الإنسانية عقلاً وروحاً وفكراً وسلوكاً، وما يعج به من المعلوم والمجهول، وما ينتابه من المشاعر خيرها وشرها.

وبيّنا أنَّ المخلوق البشري -الذي هو محل المعرفة التي نتحدث عنها- قد جيء به إلى هذا العالَم، ليكون مستخلَفاً فيه وليكون العالَم نفسه مسخراً له، ونزل معه إلى هذا العالَم من بينات الهدى ما يلزمه ليحقق مقاصد الاستخلاف. ولذلك يتعذر أن لا يكون هذا العالم مصدراً لمعرفته به وعنه، لأن هذا العالم بأقسامه الثلاثة هو موضوع الوحي الذي يهتدي به الإنسان في سعيه لعمرانه والحياة فيه.

ومثل ذلك يقال عن أدوات المعرفة؛ إذ يتعذر على الإنسان أن يتعامل بعقل مجرد عن الحسّ في أمور حياته على الأرض، فالحواس هي منافذ العقل في الإدراك والوعي، وهي أدوات السعي في اكتساب الفهم والخبرة في دلالات الهدي الإلهي من جهة، وحقائق العالم من جهة أخرى.

وقد تبين لنا أن مهمة العقل أن يعقل معاني الوحي وحقائق العالم، وهي مهمة فطرية في أصل الخلق الإلهي، وأن مهمة الحسّ أن تجعل معاني الوحي وحقائق العالم قريبة ميسرة للعقل ليعيها ويدركها، وهي كذلك مهمة فطرية في أصل الخلق الإلهي لهذه الحواس. وبهذا يجوز لنا القول: إنَّ المصدرين متكاملان بالفطرة، وإنَّ الأداتين متكاملتان بالفطرة، وإن التكامل بين المصدرين والأداتين من الفطرة كذلك.

وإذا كنا نتحدث عن المصادر والأدوات في الرؤية المنهجية الإسلامية من منظور كلي عام، فإنَّ تفاصيل التعامل مع المصادر والأدوات تتيح للإنسان أن يطور من المصادر الفرعية والأدوات التفصيلية ما يصل إليه بالخبرة والتجربة، وأن يتنامى علم الإنسان النظري والعملي، ويتزايد كسبه من المعرفة والخبرة، دون توقف. وكلّما وصل في العلم في يوم محدد إلى مستوى معين، فعليه أن يدعو ربّه أن يزيد علمه إلى مستوى أعلى في اليوم التالي: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۗ وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ١١٤﴾ [طه: 114].

obeikan.com